

(معركة مؤتة دروس وعبر)

خالد بن ضحوي الظفري

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) .

عباد الله : إن من أعظم المعارك التي خاضها المسلمون في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم معركة مؤتة، تلك الغزوة التي فيها من الدروس الكثير، وهي مقدمة وتمهيد لفتح بلدان النصراري، وقعت في جمادي الأولى سنة 8 هـ.

وسبب هذه المعركة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بُصْرِي . فعرض له شُرْحِيل بن عمرو الغساني . وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر . فأوثقه رباطاً، ثم قدمه، فضرب عنقه .

فاشتد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نقلت إليه الأخبار، فجهز إليهم جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل ، وهو أكبر جيش إسلامي لم يجتمع قبل ذلك إلا في غزوة الأحزاب .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا البعث زيد بن حارثة، وقال : (إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة) ، وعقد لهم لواء أبيض، ودفعه إلى زيد بن حارثة. وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا مَنْ هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم، وقتلوه، وقال لهم : (اغزوا بسم الله، في سبيل الله، مَنْ كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقطعوا نخلاً ولا شجرة، ولا تهدموا بناء) . نعم هذا هو الأدب الإسلامي في الجهاد فأين من يزعمون الجهاد الآن.

ولما تهيأ الجيش الإسلامي للخروج حضر الناس، وودعوا أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسلموا عليهم، وحينئذ بكى أحد أمراء الجيش - عبد الله بن رواحة - فقالوا : ما يبكيك ؟ فقال : أما والله ما بي حب الدنيا، ولا صباية بكم، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار : { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا }
 [مريم : 71] ، فلست أدري كيف لي بالصدور بعد الورود ؟ فقال المسلمون : صحبتكم الله
 بالسلامة، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين غانمين، فقال عبد الله بن رواحة :
 لكنني أسأل الرحمن مغفرة ** وضربة ذات فرع تقذف الزبدا
 أو طعنة بيدي حران مجهزة ** بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
 حتى يقال إذا مروا على جدثي ** أرشده الله من غاز وقد رشدا
 ثم خرج القوم، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مشيعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف
 وودّعهم .

وتحرك الجيش الإسلامي في اتجاه الشمال حتى نزل مَعَان، من أرض الشام، مما يلي الحجاز
 الشمالي، وحينئذ نقلت إليهم الأخبار بأن هرقل نازل بمآب من أرض البلقاء في مائة ألف من
 الروم، وانضم إليهم من نصارى العرب مائة ألف .

ولم يكن المسلمون أدخلوا في حسابهم لقاء مثل هذا الجيش العرمرم . الذي بوغتوا به في هذه
 الأرض البعيدة . فحار المسلمون، وأقاموا في مَعَان ليلتين يفكرون في أمرهم، وينظرون ويتشاورون،
 ثم قالوا : نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال،
 وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له .

ولكن عبد الله بن رواحة عارض هذا الرأي، وشجع الناس، قائلاً : يا قوم، والله إن التي
 تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا
 بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة .
 وأخيراً استقر الرأي على ما دعا إليه عبد الله بن رواحة .

وتحركوا إلى أرض العدو، حتى لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها : [شَارِف
] ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى مؤتة، فعسكروا هناك، وتعبأوا للقتال.

وهناك في مؤتة التقى الفريقان، وبدأ القتال المرير، ثلاثة آلاف رجل يواجهون هجمات مائتي
 ألف مقاتل . معركة عجيبة في تاريخ البشر، ولكن إذا هبت ريح الإيمان جاءت بالعجائب .
 أخذ الراية زيد بن حارثة . حب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وجعل يقاتل بضراوة بالغة،
 وبسالة لا يوجد لها نظير إلا في أمثاله من أبطال الإسلام، فلم يزل يقاتل ويقاتل حتى شاط في
 رماح القوم، وخر شهيداً. وحينئذ أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، وطفق يقاتل قتالاً منقطع

النظير، حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها، ثم قاتل حتى قطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، ولم يزل بها حتى قطعت شماله، فاحتضنها بعضديه، فلم يزل رافعاً إياها حتى قتل . وكان يقول: يا حبذا الجنة واقترباها * طيبة وباردا شرباها * والروم روم قد دنا عذابها * كافرة بعيدة أنسابها * على إن لاقيتها ضرباها. وأثابه الله بجناحين في الجنة، يطير بهما حيث يشاء ؛ ولذلك سمي بجعفر الطيار، وبجعفر ذي الجناحين.

روى البخاري عن نافع؛ أن ابن عمر أخبره : كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلي، ووجدنا ما في جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية.

ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة، وتقدم بها، وهو على فرسه، فتقدم، فقاتل حتى قتل . وحتى لا تسقط الراية أخذها ثابت بن أقرم وقال : يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية قاتل قتالاً مريراً، فقد روي البخاري عن خالد بن الوليد قال : لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم مؤتة . مخبراً بالوحي، قبل أن يأتي إلى الناس الخبر من ساحة القتال : (أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب . وعيناه تذرفان . حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم).

نعم عباد الله: هكذا كان يقاتل أصحاب رسول الله كل ذلك صبرا على نصر هذا الدين، وصبرا على طاعة الله وطاعة رسوله لم يردهم قلة عددهم ولا قلة عتادهم، فنالوا بذلك رضى الله تعالى. أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ.

الخطبة الثانية

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

أَمَّا بَعْدُ: عِبَادَ اللَّهِ: ومع الشجاعة البالغة والبسالة والضراوة الميريتين، كان مستغرباً جداً أن ينجح هذا الجيش الصغير في الصمود أما تيارات ذلك البحر من جيوش الروم . ففي ذلك الوقت أظهر خالد بن الوليد مهارته ونبوغه في تخليص المسلمين مما ووقعوا فيه.

فقد نجح خالد بن الوليد في الصمود أمام جيش الرومان طول النهار، في أول يوم من القتال.

وكان يشعر بمسيس الحاجة إلى مكيدة حربية تلقي الرعب في قلوب الرومان حتى ينجح في الانحياز بالمسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة . فقد كان يعرف جيداً أن الإفلات من برائتهم صعب جداً لو انكشف المسلمون، وقام الرومان بالمطاردة .

فلما أصبح اليوم الثاني غير أوضاع الجيش، وعبأه من جديد، فجعل مقدمته ساقه، وميمينته ميسرة، وعلى العكس، فلما رآهم الأعداء أنكروا حالهم، وقالوا : جاءهم مدد، فرعبوا، وصار خالد . بعد أن تراءى الجيشان، وتناوشا ساعة . يتأخر بالمسلمين قليلاً قليلاً، مع حفظ نظام جيشه، ولم يتبعهم الرومان ظناً منهم أن المسلمين يخدعونهم، ويحاولون القيام بمكيدة ترمي بهم في الصحراء .

وهكذا انحاز العدو إلى بلاده، ولم يفكر في القيام بمطاردة المسلمين ونجح المسلمون في الانحياز سالمين، حتى عادوا إلى المدينة . واستشهد يومئذ من المسلمين اثنا عشر رجلاً، أما الرومان، فقد قتل منهم الكثير . ولا شك أن هذا نصر من الله للمسلمين بصبرهم على تلك الجموع وقلة عدد قتلاهم، وبث الرعب في قلوب الأعداء جميعاً من الرومان وغيرهم من مشركي العرب، وذلك يؤكد أن المسلمين من طراز آخر غير ما ألفته العرب وعرفته، وأنهم مؤيدون ومنصورون من عند الله، وأن صاحبهم رسول الله حقاً . ولذلك نرى القبائل اللدودة التي كانت لا تزال تثور على المسلمين جنحت بعد هذه المعركة إلى الإسلام، وكانت هذه المعركة بداية اللقاء الدامي مع الرومان، فكانت توطئة وتمهيداً لفتوح البلدان الرومانية، واحتلال المسلمين الأراضي البعيدة النائية . اللهم انصر الإسلام والمسلمين . اللهم أعز دينك . اللهم أعز دينك .